الفصل السادس

التوحيد يؤسس لحرية الإنسان بأفضل وأوسع معانيها

هذه الرسالة في التوحيد يمكن اعتبارها أيضاً رسالة في الدعوة للحرية وكرامة الإنسان وحقوق الإنسان.

هذا ما أؤمن به، وهذا عنوان رئيس وكبير من عناوين فهمي للتوحيد.

بينت في الفصول السابقة أن التوحيد هو أن يؤمن الإنسان بالله وحده خالقا وربا لكل الأكوان والكائنات، لا شريك له ولا ند، وأن ينزهه عن كل شبيه، وأن يسلم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى من دون تأويل أو تعطيل، وأن يعبده وحده ولا يعبد معه أحدا سواه.

التوحيد: تحرر روحي وسياسي

إذا اختار الإنسان الحر أن يسمع لنصيحة الأنبياء وصوت العقل ونداء الفطرة، وآمن بالله تعالى، وانضم لمواكب المؤمنين الموحدين عبر التاريخ، فإنه يتحرر بخياره هذا من الأصنام والأوهام والخرافات، ويتحرر أيضا في الوقت نفسه من العبودية لأي مخلوق آخر في الوجود، لأي إنسان، لأي مستبد، أو لأي رجل دين يستغفله ليسيطر عليه ويستغله.

إذا اختار الإنسان الحر نهج التوحيد الخالص فإنه يهتدي به أيضا لمبادئ العدل والسلام والحرية والمساواة بين البشر وحقوق الإنسان، ويصبح ترجمانا لمكارم الأخلاق.

هذا يعني أن اعتناق مبدأ التوحيد الخالص كما جاء به القرآن الكريم يؤسس لحرية الإنسان بأفضل وأوسع معانيها.

التوحيد أساس روحي لكرامة الإنسان

والمساواة بين البشر

التوحيد هو الأساس العقدي لمبدأ المساواة بين بني البشر، كما أكد ذلك كل الأنبياء والمرسلين. والمساواة تعني الحرية، وتعني أن كرامة الإنسان مقررة من عند الله عز وجل، وليست منحة من أي إنسان، مهما زادت سلطته ومهما كثرت أمواله. قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠)

لذلك نرى أن جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله عز وجل للناس يدعونهم لعبادة الله وحده، كانوا من دعاة الحرية وحقوق الإنسان أيضا، ونجد أن خصومهم، من الحكام، أو من كبار الاثرياء، أو من رجال الدين غير النزهاء، كانوا دائما في صف التسلط والاستبداد.

كانت معركة إبراهيم عليه السلام مع النمرود الطاغية الذي ادعى أنه يحيي ويميت.

وكانت معركة موسى عليه السلام مع فرعون الذي طغى وتجبر

وادعى الألوهية وقال لشعبه، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ (غافر: ٢٩).

وكانت معركة المسيح عليه السلام مع نخبة من رجال الدين الذين تحالفوا مع السلطة لمنع الرسول من التواصل الحر مع الناس وإبلاغهم رسالة ربه.

وتكرر الأمر في تجربة النبي صلى الله عليه وسلم. كانت دعوته للتوحيد دعوة للحرية، والمساواة بين جميع بني البشر، والشورى، وحقوق الإنسان، وكرامة المرأة، والعدالة الاجتماعية. وقد قاد معسكر المناوئين لدعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- طغاة قريش، الذين لم يرفضوا دعوة التوحيد فقط، وإنما رفضوا أيضا ما جاء معها من تعاليم تساوي بين الأبيض والأسود، وبين العبد وسيده، وتحرر المرأة، وتنصف الفقراء، وتجعل الشورى منهاجا لإدارة شؤون الناس.

التوحيد دعوة للشورى والعدالة

الدعوة للتوحيد إذن هي بالضرورة دعوة للحرية، والشورى، والعدل، والكرامة وحقوق الإنسان.

وخصوم دعاة التوحيد في الغالب هم أعداء الحرية، والشورى، والعدل، والكرامة وحقوق الإنسان.

يجب أن نضع هذه الحقائق في أذهاننا عندما نتحدث عن التوحيد في كل عصر. هذه عبر التاريخ، تكررت أكثر من مرة، لذلك يمكن الاستدلال والاحتجاج بها.

وهذا يعني أنه لا ينزعج من الدعوة للتوحيد الخالص، في الغالب،

وبحسب ما بينته التجارب التاريخية السابقة، إلا من لديه مصلحة في استغلال أخيه الإنسان، والسيطرة عليه، لتحقيق مصالح سياسية واقتصادية. وأحيانا، تتحالف شرائح من رجال الدين مع المستغلين من أهل السلطة والمال، ولطالما انحرف نفر من رجال الدين في التاريخ ووقفوا مع الطغاة ضد الأنبياء والدعاة والمصلحين.

خطر سطوة رجال الدين المزيفين

ومن عبر التاريخ المهمة التي يجب الإلحاح عليها أن فرص نجاح دعوات التوحيد ارتبطت غالبا بانتشار الحرية، وبتحرر عموم الناس من سطوة الحكام، وسطوة الأثرياء الجشعين المستغلين لحقوق الناس، وأيضا من سطوة رجال الدين المزيفين الذين ارتبطوا بالحكام والأثرياء لينالوا بعض المنافع المادية والمعنوية منهم.

وجريرة هؤلاء أشد، أعني رجال الدين، لأنهم في الغالب يعرفون الحق ويعرضون عنه ابتغاء منافع دنيوية زائلة، ومن أجل هذه المنافع الزائلة يضللون الناس عن الحق، ويفسدون الدين، ويحولونه وصفة لاستغلال الناس، وتخديرهم، والسطو على عقولهم وأموالهم.

والحديث عن المستبدين وأعوانهم من رجال الدين الفاسدين، يحيل إلى مسألة أخرى مهمة يمكن أن تقدم تفسيرا إضافيا لأسباب التركيز على التوحيد، وتقديمه بصفته أولوية مطلقة في القرآن الكريم. مسألة أخصص لها الفصل الآتي إن شاء الله.